دلالة المكان في كتاب" العظمة" لعبد الله بن سلام رضي الله عنه

Significance Of Place In The Book "Greatness" Of “Abdullah Ibn Salam May Allah Be Pleased With Him

تاريخ الإرسال:2018-04-23 تاريخ القبول: 2018-05-10

الطالبة: فاطمة الزهراء ناضر

البريد الإلكتروني:nadharfatima@gmail.com

التخصص:الدلالة في المستويات اللسانيّة

المشرف الدكتور :محمد عدلان بن جيلالي

المخبر :نظرية اللغة الوظيفيّة

جامعة :حسيبة بن بوعلي الشف/الجزائر

ملخص المقالة :

يعدّ كتاب "العظمة" لعبد الله بن سلام رضي الله عنه كنزا تراثيّا يضاف إلى فضاء الإبداع العربي القديم، المتعطش لمعرفة أسرار العالم الكونيّ، و مكامن الحياة و الطبيعة، و لكلّ ما هو مجهول من أعاجيب الخلق، المتشوق في الوقت نفسه لكلّ ما هو غريب و عجيب. ففي كتاب "العظمة" تنكسر حدود اللا معقول، و تتعالى أنساق المكان بكلّ أبعاده، و يصبح البؤرة المركزية التي تتولد منها الدلالة بحيث يتداعى فيه الجزء عبر الكلّ بصورة اختزاليّة، يمتزج فيها الواقع بالخيال، و يعدو عالما أسطوريا يعكس حقيقة الخلق و عجائبيته، و رمزا لعظمة الخالق، و بالتالي تبتدع فيه آلية الوصف في أرقى ما يكون، وترتفع إيحائيّة المكان و جماليته، و تنبثق منه رحابة المتخيل السردي، و فن التصوير البديع، و تلغى أبعاد الزمن التاريخّ، و تسلسله الرتيب، و تختلط الأزمنة فيما بينها خلطا بارعا، ليتولد بذلك زمنٌ آخر، زمن أسطوري مفعم بالغرابة و الدهشة، و ينفتح العقل البشري على عوالم أخرى، من ابتداع الراوي عبد الله بن سلام رضي اللّه عنه.

الكلمات المفتاحية :

الدلالة ؛ المكان ؛ الخطاب ؛السرد ؛العظمة ؛ عبد الله بن سلام ؛الشخصيات ؛القص ؛المدينة ؛البيت؛الجنة والنار.

Summary:

The book "The Greatness" of Abdullah bin Salam, may Allah be pleased with him, a heritage treasure added to the space of ancient Arab creativity, thirsty to know the secrets of the cosmic world, and the foundations of life and nature, and all that is unknown wonders of creation, eager at the same time for everything that is strange And amazing. In the book "Greatness," the boundaries of the unreasonable are broken, and all the dimensions of the place become magnified, and the central focus of the semantics becomes so that the part collapses across the whole in a partial way. The reality is combined with the imagination and is a mythical world that reflects the reality of creation and its wondrousness. A symbol of the greatness of the Creator, and thus devotes the mechanism of description in the finest of what is, and the rise of the significance of the place and its beauty, and the emergence of the spaciousness of the narrative imagination, and the art of brilliant photography, and the dimensions of time and history, and its monotonous sequence, , To create another time, a legendary time filled with surprise and surprise, and open the mind Mortal on other worlds, from inventing the narrator Abdullah bin peace may Allah be pleased with him.

key words: Significance – Place- Grandma- Abdullah Bin Salam - Personalities - Story - City - House - Paradise and fire.

توطئة في المقاربة والمفاهيم:

أولى عبد الله بن سلام رضي الله عنه عناية كبيرة للمكان في كتابه " العظمة"، و جعله المرجعية الأولى التي تتحكم في زمام المسار السرديّ، بكلّ أبعاده العقائديّة و الدينيّة، ليدخل بذلك في مغامرة مكانيّة، مغامرة الانتقال من مكان لآخر" ومثل هذه المغامرة تتطلب مجهودا شاقا وعملا مستمرا في التفكير والنظر والرؤية و التمثل والفهم والإدراك "[1] وهذا ما يجعل الراوي عبد اللّه بن سلام" مشبعا بروح المكان فترة معينة "[2] يتلاعب ببنيته الهندسيّة، كاسرا جدار المعقول، متخطيا حواجزه، محاكيّا العوالم الغامضة و الغريبة، ليصبح بذلك "الحاضنة الاستيعابيّة و الإطار العام الذي تتحرك فيه الشخصيات و تتفاعل معه"[3]،لخلق عالم أسطوريّ تتماهى عبره الذات و تتعالى، لتبرز عظمة الله تعالى.

- فكيف جاءت أمكنة ابن سلام؟
- و ما هي دلالاتها ؟ وإلى أي مدى أحسن هيكلتها داخل البنية السرديّة؟

1-1- المكان: المفهوم والوظيفة السرديَّة:

يعدّ المكان من أهم المكونات التي تشكلّ بنية الخطاب السرديّ فهو" ملعب الأحداث و الشخصيات الروائية، و كلّما أجيد بناؤه، و تجهيزه، استطاعت الشخصيات أن تؤدي دورها بشكل أفضل، و تبرز مهارتها بشكل أكمل"[4]،و بدون مكان لن يكتمل بناء الشخصيات و الزمن، و لن تتطور أحداث القصّ على طول خط السرد،وكلّما أتقن رسم المكان وهندسته تخييليا، زاد من انسجام عناصر القصة أو الرواية فيما بينها ،وتواشجها مع بعضها البعض ليصبح بذلك " شبكة من العلاقات ،والرؤى التي تتضافر مع بعضها لتشييد الفضاء الروائي الذي ستجري فيه الأحداث"[5] .

وبالتالي فإنّ المكان يتحدد عن طريق المادة السرديّة ،وتلاحق الأحداث والحوافز،والشخصيات و يبنى على " أساس من التخيل المحض ،ولكنّه لا يكتسب ملامحه وأهميته بل وديمومته إذا لم يتماثل بدرجة أو بأخرى مع العالم الحقيقيّ خارج النص ،فالمكان يوصل الإحساس بمغزى الحياة ويضاعف التأكيد على تواصلها وامتدادها"[6]،متحولا بذلك إلى مكون جوهرّي في العمل الروائيّ، ملامسا الواقع،متقاطعا مع منظور الحياة ومغزاها،مبتدعا جسرا من التواصل والتفاعل بين المبدع والقارئ.

1-2- الدلالة:

اهتم اللغويون العرب القدامى بدراسة الدلالة في ضوء الدراسات الأصوليّة، و قد كانت معاني القرآن الكريم المشكاة الأولى التي أنارت دربهم ، و ألهمت سجيتهم للبحث في مواطن الإعجاز و أحكامه، ليهتدوا بذلك إلى ضرورة العناية باللغة العربيّة، و الاهتمام بها عن طريق التقعيد لها، و جمع كل ما يتعلق بها من مفردات و آداب ، ليتوسع بذلك مجال البحث و الدراسة ، و خاصة عندما انفتحوا على بوابة الأخر، و استفادوا من علوم الهنود و

اليونان، و جهود غيرهم ،محاولين وضع نظرية دلاليّة خاصة بهم، قائمة بذاتها، في حين أن مصطلح الدلالة لديهم عرف مجموعة من التعريفات نذكر منها تعريف السيد الجرجاني[7] بقوله:" الدلالة هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، و الشيء الأول هو الدال ، و الثاني هو المدلول،و كيفية دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص، و إشارة النص، و دلالة النص، و اقتضاء النص"[8] ، إذ يتبين من هذا المنطق أنّ تعريف الجرجاني لدلالة مستمد من الثقافة الأصوليّة، حيث يتمّ التوصل إليها عن طريق معرفة الشيء، و المتمثل في الدال الذي به تحصل المعرفة، و العلم بشيء آخر هو المدلول ، الذي تنتج عنها العملية الدلاليّة وفق قسمين من الدلالة هما:

- الدلالة اللفظيّة: إذا كان الشيء الدال لفظا.
- الدلالة غير اللفظيّة: إذا كان الدال غير لفظ.

كما أنّه وظف لفظة الشيء بدل اللفظ، لأنّ معناها ينفتح على البعد الرمزي الذي يهتمّ بالعلامات اللغويّة، و غير اللغويّة مشيرا بذلك إلى أربع مستويات صوريّة تتشكل وفقها الدلالات هي:

دلالة العبارة: ويقصد بها المعنى الذي يتبادر إلى الذهن من صيغة النص، و هو الذي قصده الشارع من وضع النص، لأنّ المشرع حين يضع النص يختار له من الألفاظ و العبارات ما يدلّ دلالة واضحة على غرضه ثمّ يصوغه بعد ذلك، حيث يتبادر المعنى المقصود من النص إلى ذهن المطلع بمجرد الاطلاع عليه.

دلالة الإشارة: و هي ما يؤخذ من إشارة اللفظ لا من اللفظ، و نعني به ما يتبع اللفظ من غير تجريد قصد إليه، فكما المتكلم قد يفهم بإشارته و حركته في أثناء كلامه ما لا يدلّ عليه نفس اللفظ، فيسمى إشارة ، فكذلك قد يتبع اللفظ ما لم يقصد، و هذا ما يسمى إيماء و إشارة ، و هذه الدلالة تستخدم فيها حركات الجسم، و الإشارات الموضوعة كعلامات الطرق ، و النجوم ، و النيران، إشارات المرور.

دلالة الاقتضاء: هي التي لا يدلّ عليها اللفظ، و لا يكون منطوقا بها، و لكنها تكون من ضرورة اللفظ .

دلالة النص: عبارة عما ثبت بمعنى النص لغة لا اجتهادا[9].

و كلّ هذه الدلالات تصبّ في قسم الدلالات الإيحائيّة، لأنّ الدلالة عنده تتمثل في وجهة صرف الدال إلى مدلوله لوجود صلة مباشرة بينهما .

أما اللغويون المحدثون فقد عرفوا مصطلح الدلالة بأنّه « علم يدرس كلّ ما أعطى معنى ، أو علم دراسة المعنى الذي يتحقق من الرموز الصوتيّة و اللفظيّة، و الكتابيّة ، و الإشاريّة و الجسديّة و غيرها من رموز المعاني »[10] حيث يعتمد هذا العلم على دراسة المعنى، الذي يتحقق عن طريق الرموز اللغويّة بدرجة الأولى، ثمّ الرموز غير اللغويّة التي تشارك في إنتاج الدلالة،و قد اعتبر علم الدلالة فرعا من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى، بدراسة الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادرا على حمل المعنى، لأنّه يشتغل على كلّ شيء يقوم بدور العلامة أو الرمز.

2- دلالاتُ الأمكنة في البِنْية السردية لكتاب (العظمة).

2-1- مغارة المانعة:العلم/الموت

إنّ أول مكان يصادفنا في كتاب " العظمة " هو مغارة " المانعة ".

و المغارة: يقصد بها الكهف، و الكهف عبارة عن "غار واسع في الجبل "[11] فهو "كالمغارة في الجبل إلّا أنّه أوسع منها فإذا صغر فهو غار"[12]

و عليه فإنّ المغارة كالكهف إلّا أنّها أقل سعة منه، و هي عبارة عن مكان مغلق مظلم تنعدم فيه شروط الحياة،محاط بهالة من الغموض و العجائبيّة،استحضرها ابن سلام وأضفى عليها سمة العلم،و شحنها برؤية عقائديّة،و ربطها بشخصية سيدنا آدم عليه السلام، الذي اتصف بحب المعرفة،إذ"خشي آدم عليه السلام على العلم المخزون أن يذهب، فعمل ألواحا من الطين، و كتب عليها العلم ، و طبخها بالنار و استودعها في مغارة يقال لها المانعة، في جبل يقال له المنديل، في سرنديب بالهند ، و سأل الله تعالى أن يحفظها بحفظه"[13]، حتى لا تضيع وتبقى، ويستفاد منها ،لذلك أخفاها في مغارة المانعة وهذا لأنّها عبارة عن فضاء مغلق لحفظ الأسرار و الكنوز، و متاهة آمنة لجماعة الصعاليك، فهي المكان الأنسب لحفظ العلم و سلامة الألواح من الغرق، بفضل موقعها المتعالي، و البعيد عن أيدي المتطفلين.

و ما اسمها إلّا أكبر دليل على ذلك، "المانعة " فهي تمنع الناس من اكتشاف خباياها "فتلك المغارة منطبقة لا تفتح إلاّ

من السنة إلى السنة في يوم عاشوراء، فإذا كان ذلك اليوم تفتح المغارة بإذن الله عز وجل، و لا تزال مفتوحة من صلاة لصبح إلى غروب الشمس، فمن غربت عليه الشمس و هو في المغارة هلك،و انطبقت عليه، و لا يستطيع أن يخرج منها، و قد هلك فيها خلق كثير"[14]،إنّها مغارة محصنة إلاهيا،تقع في جبل المنديل بسرنديب[15]، لها زمن محدد تفتح فيه، ثمّ توصد دون تدخل أحد،محفوفة بالمخاطر، تنفتح مرة سنويا في شهر "محرم"يوم "عاشوراء" من صلاة الصبح إلى غروب الشمس، و حينها تنكسر ظلمة المغارة و تتحول إلى مكان مفعم بالحياة، مضاء بنور النهار، تتعالى عبره إمكانيّة الانعتاق" ، لذا وردت الأخبار إلى دانيال عليم فصعد إلى ذلك المكان و معه أناس من تلامذته. و كان عددهم أربعين كاتبا و معهم ما يحتاجون من الكواغد و المداد و الأقلام و صاروا إلى المغارة يوم عاشوراء، فوجدوا الباب مفتوحا، فدخلوا و تفرقوا في المغارة و كتبوا جميع ما أرادوا، و خرجوا قبل أن تغرب الشمس"[16] ،وبالتالي حققوا الشرط ،وأكملوا المهمة بنجاح ،وذلك بفضل حكمة دانيال العليم .

بناء على ما سبق يتبين أن ابن سلام أضفى على مغارة " المانعة" بعدا دينيّا، و ربط زمن انفتاحها بزمن نصر موسى عليه السلام، و غرق فرعون ،أي زمن انتصار الحق على الباطل،و عليه فإنّ: مغارة " المانعة " بؤرة مكانيّة مقدسة مباركة، جذبت إليها كثيرا من الناس إلّا أنّ معظمهم لقوا حتفهم فيها، و هذا نظرا لعدم التزامهم بالشرط المحدد.

و الشخص الوحيد الذي استطاع أخذ العلم المحفوظ، هو دانيال العليم، ليس بسرقة الألواح، و إنّما بكتابة ما جاء فيها بمساعدة تلامذته، و احترام المدة الزمنيّة المحددة لانغلاق المغارة، وبالتالي نجد أن ابن سلام يعلي من مكانة دانيال العليم، و يرجع له الفضل في نشر العلم " و إنّ دانيال عليم و ضعه على صحف النحاس فلما حضرته الوفاة تأسف عليها تأسفا عظيما كي لا تقع في يد غيره، فلطف الله تعالى و أخرجها و نشرها في الدنيا"[17] .

من هذا المنطلق يتضح لنا مدى حرص دانيال العليم على العلم المخزون، و الخوف من وقوعه في يد أشخاص غير متخلقين، و بالتالي يتعالى عن الدنيا و ملذاتها، و يقترب من الله عز وجل، وهذا نظرا لمدى صدق إيمانه ،إذ يستجيب الله لدعائه، و يحفظ العلم المخزون ،و يخرجه للناس ليستفيدوا منه، ويعملوا به،

وبالتالي نلحظ أن هناك تعالق، و تعانق بين الشخصيتين، شخصية سيد البشريّة آدم عليه السلام ، و شخصية دانيال العليم،فكلاهما اهتما بالعلم وعملا على المحافظة عليه،وهذا نظرا لخشيتهما على العلم المخزون، و خوفهما على ضياعه.

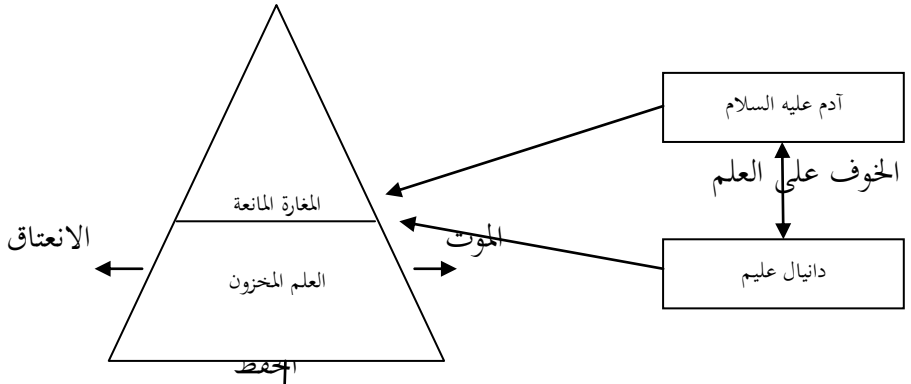

خطاطة الحفاظ على المعرفة والعلم المخزون

و بالتالي :تصبح مغارة "المانعة" المكان المنفتح، و الحلقة التي تربط بين الشخصيتين:آدم عليه السلام ودانيال العليم بصورة تكامليّة، يتعانق فيها الماضي مع الحاضر، وتبرز أهمية العلم في نظرهما، إنّه أغلى كنز في هذا الوجود، و ضياعه يعني دمار البشريّة، و عدم تواصل الخلق مع خالقهم، والتعرف على عظمته،وبالتالي تحدث القطيعة ولا يتمّ التواصل بين العبد وخالقه.

و بما أنّ المغارة مكان مغلق، بعيد عن أيدي البشر فهو أأمن مكان لحفظه، من كلّ المخاطر التي تهدد بقاءه سواء كانت طبيعيّة أو بشريّة ،لتُمثل بذلك: البعد الأسطوري و المقدس، و تُحيل إلى ثنائية الخلود و الفناء، باعتبار أنّ العلم يبقى على مرّ الأزمنة، و الإنسان يفنى له أجل محدد لا يتخطاه .

كما نلحظ أنّها مثلت البعد العقائدي، وذلك عن طريق انفتاحها على يوم عاشوراء، الذي تتجلى عبره عقيدة ابن سلام، ويبرز انتمائه الديني والعقائدي،و تبرز أهمية المغارة باحتوائها للعلم المخزون، و جذبها لدانيال العليم، ليجسد بذلك فكرة التحدي، و كشف المجهول ، وبيان مدى قيمة ألواح سيدنا آدم عليه السلام، في إبراز عظمة الله تعالى، و الانفتاح على عالم غيبي آخر لا نعرفه.

2-2- بيت أمير المؤمنين " عثمان بن عفان "[18] رضي الله عنه:

يقدم الراوي ابن سلام أجواء مدهشة للمكان منذ الوهلة الأولى،و يستثمر عنصر الإدهاش و جمالية الوصف لشحن الأمكنة بعنصر الإثارة و جعلها لغزا مبهرا،إذ ينطلق السرد من بيت الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه،الذي استقبل ابن سلام،ورحب به، وبالتالي يصبح فن القص يتمحور حول شخصيتين هما:

1- عثمان بن عفان رضي الله عنه.

2- عبد الله ابن سلام رضي الله عنه.

إذ يستلم عبد الله بن سلام زمام القصّ، و يروي لعثمان بن عفان عجائب الخلق و عظمة الله تعالى، بقوله " دخلت على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقال عثمان رضي الله عنه: سبحان من خلق الخلق و بسط عليهم الرزق، و نشر تلك الأمم في الأرض في برّها و بحرها و سهلها و جبالها من وحشها و إنسها و جنّها و هوامها و حيتانها و كلّ يغدو و يروح في سعة هذه الدنيا. فسبحان الحنان المنان ذي الجلال و الإكرام."[19]

بناء على ما سبق نلحظ أنّ ابن سلام رضي الله عنه يسرد في هذا المقطع قصة دخوله على خليفة المؤمنين "عثمان بن عفان"، إذ يفتتح خطابه بتعظيم الله تعالى، مبرزا بذلك عظمة خلق الله و سعة الدنيا، ومدى بسط الرزق، كما تبين له أنّ الخليفة"عثمان بن عفان رضي الله عنه "لم يحظ بأسرار عظمة خلق الله، وأن معرفته ضئيلة عن الكون " فقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه "يا أمير المؤمنين، وقع في يدك كتاب الدفائن من كتب دانيال عليم ،ففيه مذكور مما خلق الله تعالى و عظمته ما لا يصفه الواصفون و لا تصفه العقول، مما خلق الله تعالى و رزقه. فسبحان القادر على كلّ شيء"[20]،و أن الكون واسع فيه تتجلى عظمة الله ووحدانيته، و الذي يبرز ذلك ويوضحه" كتاب الدفائن" لدانيال العليم، و بالتالي ينطلق السرد من بيت عثمان بن عفان رضي الله عنه.

البيت: فضاء مكاني هام في حياتنا اليومية إنّه " المكان الذي يعيش فيه الإنسان و يقضي معظم وقته...و هو مكان الراحة و الأكل و النوم و ممارسة النشاطات الاجتماعية و العائليّة المختلفة"[21] ،لذا يعتبر من الأمكنة الأليفة المغلقة يوحي بالثبات، و الراحة و السكينة، و الهدوء، و العيش السعيد،إنّه "ملجأ للراحة والأمن والاطمئنان...يمثل رمزا لكلّ ماهو جميل وحميميّ"[22] .

و بما أن البيت بيت الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه صهر النبي (ص)، فإنّه بيت آمن مفعم بحب الله، مليء بذكره، يُشع بنور الإيمان، أهله يطمعون في مرضاة الله تعالى و يخافون من غضبه.

و بمجرد دخول عبد الله ابن سلام إلى هذا البيت، يصبح هذا البيت أشد حبا لله، إذ نجد أن الخليفة عثمان بن عفان يصرّ على معرفة ذلك العالم العجائبي الغريب ،و يبغي التعرف على هذا العالم الغيبي الذي يجهل خباياه، و بالتالي تتأزم الأحداث أكثر حتى تصل إلى موت بناته و فقدانهن، أثناء الاستماع إلى كلام ابن سلام رضي الله عنه" ثم غشي على عبد الله بن سلام رضي الله عنه، و على عثمان رضي الله عنه، و على بنات عثمان رضي الله عنهن أجمعين.ثم أفاق عثمان رضي الله عنه، و أمر بغسل عبد الله بن سلام رضي الله عنه و حرك بناته فإذا هن قد قبضن إلى رحمة الله تعالى"[23]، وفق ما سبق نلحظ أنّ ابن سلام أثرّ في مستمعيه لدرجة الإغماء عند البعض،

و موت البعض، و بالتالي فإنّ هناك رؤية خلفيّة تُظهر أنّ الجنس اللطيف جنس حساس، مقارنة بالجنس الآخر، و وقع الكلم عليه أقوى من سنان السيوف،كما نجد أنّ النص محمل بشحنة عظيمة من المؤثرات التعبيريّة،التّي تتجلى في وجل الخليفة عثمان رضي الله عنه ،وموت بناته في المجلس، إلّا أنه لا يحزن عليهن، و إنما يواصل الاستماع إلى عبد الله بن سلام، و بالتالي فإن عنصر السرد يستمرّ دون توقف، و لا يوقفه إلّا الحوار الدائر بين الراوي ابن سلام وعثمان بن عفان رضي الله عنهما ،و يتواصل بذلك عنصر الابتكار، ويمتزج الواقع بالمتخيل لخلق عالم عجائبيّ غرائبيّ فريد، وبالتالي يُصبح البيت البؤرة المكانيّة التي تنقل القارئ إلى عالم غرائبي عجيب، رغم انغلاقه، منفتحا على عوالم أخرى أكثر عظمة، ويصبح فضاؤه غير اعتيادي يسوده الجنوح، و الفضول و التقصي، و حب الاطلاع لاكتشاف المجهول.

انطلاقا مما سبق نلحظ أن: ابن سلام لم يتعمق في وصف المغارة، و بيت عثمان بن عفان رضي الله عنه، بل اكتفى بتحديد موقع "المغارة المانعة " و الزمن الذي تنفتح فيه، و أهمل جانبها الجمالي، و كذلك لم يذكر اسم البيت بتاتا، و إنّما هو عبارة عن تيمة تستنتج من خلال النص، و ذلك عن طريق أيقونات موجودة داخل النص ،ألاّ و هي وجود بنات عثمان بن عفان في المجلس و موتهن.

3- دلالة العالم الغرائبي و العجيب:

العجائبيّة والغرائبيّة:

يقصد بالعجائبيّ" التردد الذي يحسّ به كائن لا يعرف غير قوانين الطبيعة فيما يواجه حدثا غير طبيعيّ حسب الظاهر،أما جنس الغريب أو الغرائبيّ : فيكون إذا قرر القارئ أن قوانين الواقع (الطبيعة) تظلّ سليمة وتسمح بتفسير الظواهر الموصوفة"[24] ، انطلاقا مما سبق يتبين أنّ جنس الغريب مرتبط بقوانين الواقع غير الممسوسة التي تسمح بتفسير الظواهر الموصوفة، أما جنس العجائبيّ فيتحقق بقرار القارئ الذي يتقبل قوانين جديدة للطبيعة ،وذلك عن طريق مزج العالم الواقعي المحسوس بعوالم أخرى من إنتاج الخيال الخلاق لتفسير الظواهر بها .

أولى ابن سلام أهمية كبرى للعالم الغرائبيّ والعجيب وأسس لهوية المكان الخارق، متجاوزا المألوف راسما حدود العوالم الغيبيّة الأخرى مبينا خلال حواره مع "عثمان بن عفان " أنّ الدنيا هي عالم صغير مقارنة بالعوالم الأخرى " و أما قولك يا أمير المؤمنين عن هذه الدنيا و سعتها فما هي في ملك الله تعالى إلّا كمثل كوكب صغير بين الكواكب في السماء. و جدت يا أمير المؤمنين في هذا الكتاب أن الله تعالى خلق المهوى طوله ألف ألف ألف سنة ثمّ خلق على جانب البحر عن يمينه ألف ألف ألف مدينة و عن شماله مثل ذلك. و ملأها خلقا من خلق الله تعالى، و جعل لهم ليلا و نهارا و شمسا و قمرا. و أرسل فيهم الرسل و أنزل عليهم الكتب. و لكلّ مدينة عشرون ألف مرج في كل مرج عشرون ألف روضة. في كل روضة عشرون ألف حديقة. في كل حديقة عشرون ألف شجرة. في كل شجرة عشرون ألف ثمرة"[25]، من هذا المنظور نلحظ أنّ ابن سلام يُوسع الرؤية لأمير المؤمنين، و يُظهر له أنّ الكون لا ينحصر في الدنيا فقط، بل هناك مدن لمجموعات كونيّة أخرى مجهولة، حاشدة بشبكة

الأماكن المختلفة و المتنوعة تمتدّ على طول المهوى، ثمّ يليها مجموعة من المدن و المروج و الحدائق ذات الأشجار المختلفة.

فضاؤها المكانّ متشابك متآلف فيما بينه، له خصوصيته وسماته الجماليّة الخاصة به،كما توجد أراضي أخرى، تنتمي إلى حقل المعادن و الحجارة الكريمة، إذ نجد أنّ ابن سلام يُركز على هذه الخاصية، و يجعلها المنطلق لهيكلة الأمكنة الغرائبية و العجيبة.

و بالتالي تتوزع الأراضي المتكونة من الذهب و الفضة، و الرصاص ،و البلور، و اللؤلؤ الأبيض على طول المهوى بطريقة متراصة متسلسلة ،بحيث تتكون كّل أرض من بحار، جزر، أودية مروج، مدن، أبواب، حدائق، جبال، أشجار، أنهار، خلق، و تتميز بهندسة مكانيّة معينة، و خلق محدد، لهم هو يهتم ، و نهارهم ،و ليلهم، و شمسهم الخاص بهم، و ديانتهم ،و كلّهم يعبدون الله وحده،أما أشكالهم فهي عجائبيّة غريبة غير مألوفة، لتنفتح بذلك هذه العوالم على البعد العقائديّ ،وتبرز قدرة الله تعالى ،وتتجلى عظمته في هذا المخلوقات التّي تُمثل صورة لعالم آخر أشبه بما يُعرف اليوم بالمخلوقات الفضائيّة .

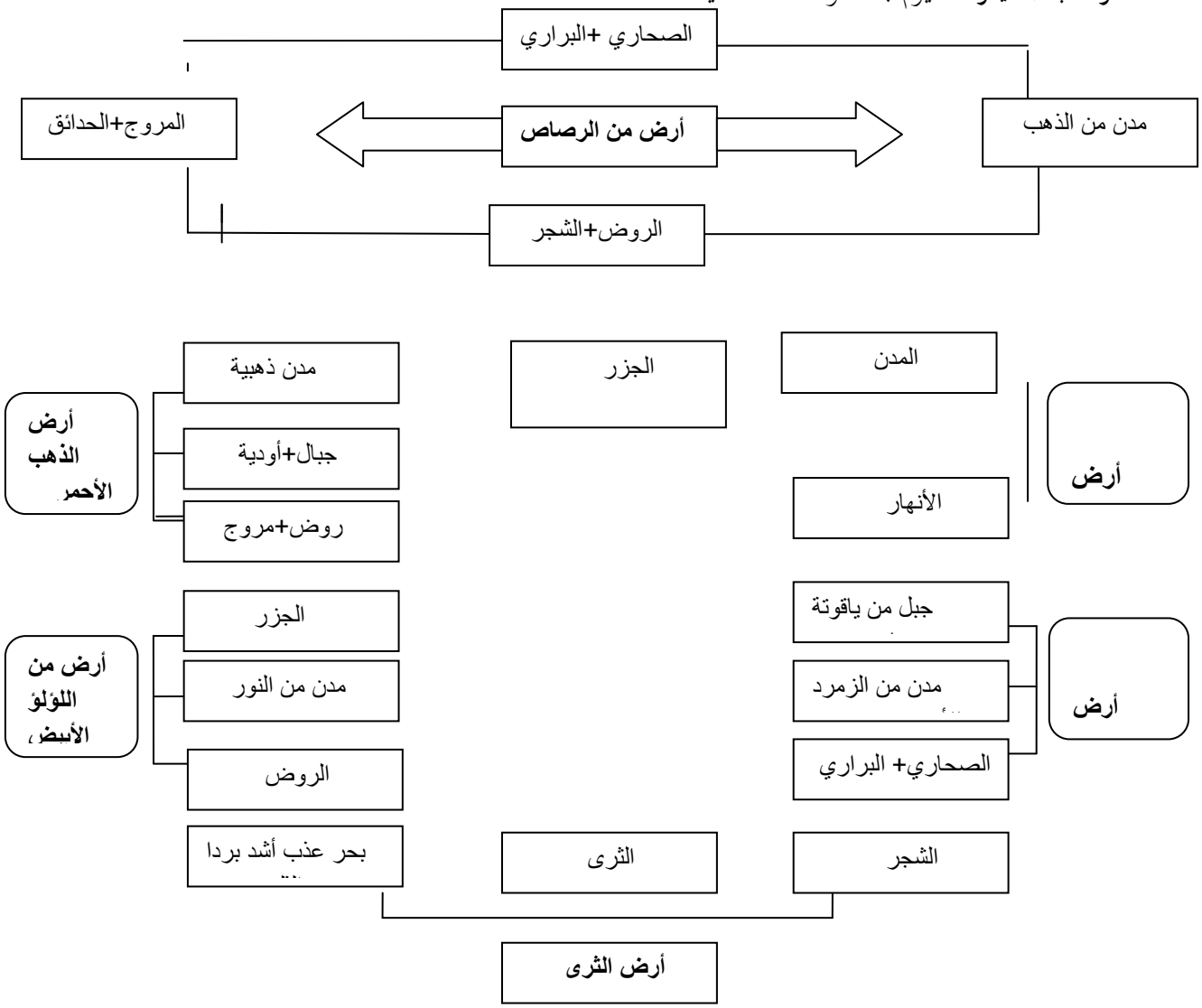

خطاطة الأمكنة الطبيعية والأراضي المعدنية في العوالم الغيبية

من خلال الخطاطة نلحظ أنّ هناك أمكنة طبيعيّة و أمكنة من صنع المخلوقات الغريبة التي تظهر مدى حضارتها الراقيّة والمتعاليّة وهي:

3-1- الأمكنة الطبيعية:وهي أمكنة متعلقة بالطبيعة":كالجبال- الصحاري-المروج-البراري-الأودية-الجزر-البحار-الأنهار- الأرض-الأشجار...إنّها أمكنة متكاملة فيما بينها، تتضح هويتها عن طريق الوصف[26] ،الذي يُثري من جماليتها و بعدها المكانّ المتعالي ، لذا نجد أن ابن سلام وظف هذه الأمكنة لتحتضن أحداث معينة ،كما ذكرت لتُبين مدى عظمة الله تعالى .

كما نلحظ أن الأمكنة التي هي من صنع المخلوقات العجائبيّة ، لم توظف ككيان أساسي في هيكلة الحدث ،و بلورته و إنّما هي عبارة عن فضاءات محملة بشعرية الأمكنة، تُفضي إلى جمال السرد الخاص المتصل بجمالية الأمكنة و تنوعها،و مثال ذلك: **المدينة:** التي هي "مهد الحضارة و رمز تقدم الأمة و استقرارها و البيئة التي تنمو فيها الثقافات و تزدهر في حدائقها العلوم و الفنون، و هي صورة الأمة. نقرأ فيها أخلاق أهلها و مثلها و قيمها."[27]

إنّها مهد الحضارة و التطور، و المكان الآمن الذي يحتوي المثل و القيم و الفنون، لها أهمية هامة في المجتمع،لذا نجد أن ابن سلام قد اهتم بها و وظفها في سرده، و أضفى عليها مسحة جمالية، و بعدا دلاليا من خلال:

3-1-1- العدد: تمثل الأعداد كغيرهامن الكائنات مثل الأشخاص والألوان والأصوات التي تكسب شخصيتها من ظروف ناشئة عنها ونتائج ناتجة من حولها ، فهي في ذاتها ليس لها أية حقيقة أنطولوجية من زاوية الفكر المنطقي ،لكنها في الفكر الأسطوري لها كيان خاص محاطة بهالة من التقديس شبه سحريّة ،يستند إليها التفكير البشري في بعض طقوسه الدينيّة و في الحكايات الخرافيّة الأسطوريّة.[28]

لذا نجد ابن سلام يوظف الأعداد الدالة على الكثرة وهذا نظرا لخاصيتها التأثيريّة ،فهي تتميز بالضخامة وتدلّ على القوة والمبالغة في الوصف معطية بذلك نوعا من الغرائبيّة و العجائبيّة في بنية المدينة والأمكنة ،ومن بين هذه الأرقام نذكر العدد سبعمائة ألف ،وعشرة آلاف،أربعمائة آلاف،ألف،سبعين ألف،تسعة آلاف،خمسمائة،خمسمائة آلاف،تسعمائة ألف،وغيرها من الأعداد التي توحي بالكثرة، مثل قوله:"ثم خلق الله تعالى فوق تلك الأرض الفضة أربعة آلاف ألف ألف ألف مدينة مدينة لكل مدينة منها نهر ماء عذب أحلى من السكر، على كل نهر أربعة آلاف ألف ألف ألف مدينة"[29] ،من خلال هذا المقطع تتجلى جمالية الرقم ألف من خلال تكراره و ربطه بالمدينة، فهو يُمثل كثرة المدن و تعددها،يعكس صورة الأعداد الأسطورية ،كما زاد الوصف والتصوير جمالية للأمكنة العجائبيّة ، و بالتالي دلّ على التطور والرقيّ.

لذا نجد لأهل هذه المدينة أعداء " لكّل مدينة من المدن أعداء يقاتلونهم في برّهم و بحرهم"[30]وهذا نظرا لخيراتهم الكثيرة و غناهم ،ولولا ذلك لما ما كانت أرضهم محطة للغزو وكثرة الأعداء ، و لما حوربوا من طرف أعدائهم.

3-1-2- اللون:

يعدّ اللون من البنيات الأساسيّة في تشكيل المدينة والأمكنة لذا نجد عبد السلام وظفه بكثرة و هذا نظرا لأهميته فهو "يحمل قدرا كبيرا من العناصر الجمالية وإضاءات دالة تعطي أبعادا فنية"[31] ،مختلفة داخل النص يحمل دلالات رمزية أسطوريّة ،ومن بين هذه الألوان لون الذهب الأحمر مثل قوله:" ثم خلق الله تعالى على ذلك الهوى أربعة آلاف ألف ألف ألف مدينة من الذهب الأحمر لكل مدينة عشرة آلاف باب، و لهم أعداء يقاتلونهم و يحاربونهم، و يبيتون على كل باب من أبوابها عشرة آلاف نفس بالنوبة يحرسونها. و هم على ذلك الحال إلى يوم القيامة"[32] بما أنّ المدن من ذهب فأكيد أنّها ستكون مطمعا للأعداء الذين يحاولون استدمار الأراضي النفيسة ،الأمر الذي يجعل أهل المدينة يتأهبون بكلّ قواهم لدفاع عن أرضهم ،وردّ الهجمات ،فكان هذا اللون دلالة على الغنى والترف.

و بالتالي ستكون هناك حروب مع الأعداء من أجل الحفاظ على مكانتها، و حريتها، و سيادتها، و بما أن لون الذهب أحمر فأكيد أنه نفيس و ثمين و عزيز عند أهله،فجمالية لونه تظهر على المكان و تحويه.

3-1-3- النار / الجنة:

لم يقتصر عبد الله ابن سلام على الأمكنة السابقة فقط بل نجده وظف أمكنة أخرى ألا و هي الجنة و النار،المتعلقة بالعالم الغيبي ليوم القيامة.

النار: تعتبر النار من الأمكنة الملعونة يوم القيامة لأنها" دار العذاب التي أعدها الله للكافرين و العصاة في الآخرة "[33] ،لذا نجد عبد السلام جعله من أهم الأمكنة التي الموظفة،وجسد خلالها مدى خطورة الكفر، كما بين أبرز أهلها،و أهم أقسامها، و لم يكتف بهذا بل رسم مجموعة من الملامح، و أضفى عليها خاصية الرعب و الخوف و العذاب، وانعدام رحمة الله تعالى.

*** أقسام النار و طبقاتها:**

قسم ابن سلام النار إلى طبقات سبعة " ثم خلق جهنم و جعلها سبع طبقات بعضها فوق بعض من الطبقة إلى الطبقة مثل ما بين العرش و الثرى.

و كل طبقة باسم معلوم الطبقة السفلى اسمها الهاوية، و هي مسكن المنافقين لقوله عز وجل " إن المنافقين في الدرك الأسفل" و الطبقة الثانية اسمها الجحيم و هي مسكن الكافرين،و الطبقة الثالثة اسمها السعير و هي مسكن الشياطين والطبقة الرابعة اسمها سقر ليأجوج و مأجوج و أشباههم، و الطبقة الخامسة اسمها لظى لليهود و الدجال و الظالمين،و الطبقة السادسة اسمها الحطمة للنصارى و من قضى عليه ربه، و الطبقة السابعة اسمها جهنم للعصاة و المذنبين من أمة محمد صلى الله عليه و سلم"[34].

وبما أنّ الآخرة هي يوم الحساب و فيها يُحاسب المرء على أعماله، أي أنّ مصيره يرتبط بعمله، و عليه فإنّ الجزاء يكون يا إما جنة أو نار ، لذا نجد ابن سلام ينطلق من فكرة أنّ يوم الآخر هو يوم الحساب و العقاب، و

بالتالي فإنّه يُركز على مظهرين: الجنة و النار، و يُقدم النار على الجنة، و ذلك بذكر طبقاتها السبعة بداية بالهاوية ثمّ الجحيم، السعير، سقر، لظى، الحطمة، جهنم.

و كلّ طبقة أُعدت لفئة معينة من الناس الذين عملوا السيئات و كفروا بالله و بنعمه،و المخطط التالي يبين ذلك:

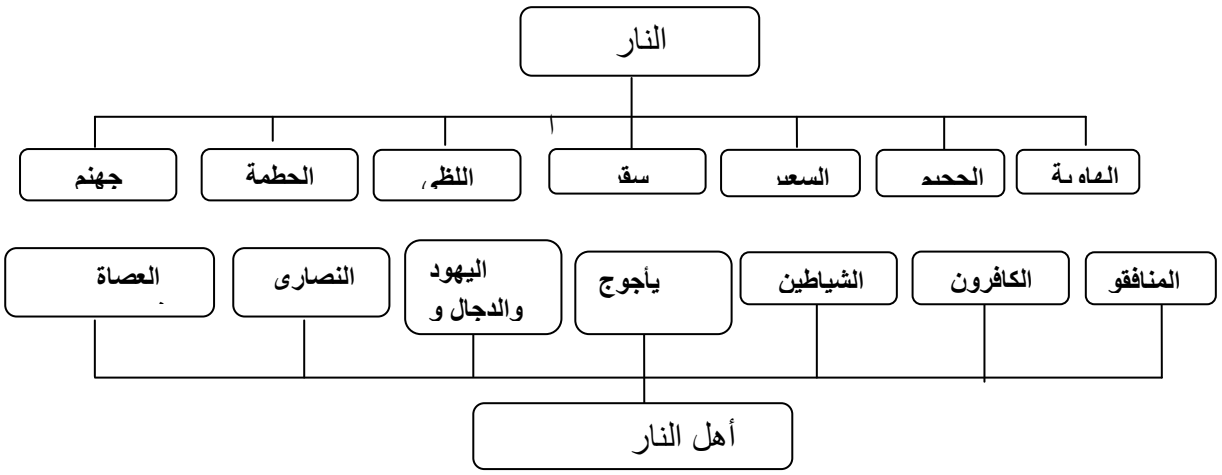

خطاطة أقسام النار وأهلها

ثمّ نجد أن ابن سلام يستهلّ في وصف جهنم و أهلها بقوله:" و جعل لها أربع قوائم، و جعل لها سبعة رؤوس، في كلّ رأس سبعة أوجه أقبح ما كان من الوجوه في كلّ وجه ستة أفواه في كلّ فيه سبعة ألسن و سبعة أضراس و أسنان، طول كل سن مائة ألف ألف سنة"[35].

بناء على ما سبق نلحظ أنّ ابن سلام يُضفي على جهنم بعدا أسطوريّا، و يجعل منها كائنا غرائبيا عجائبيا ذا صورة مخيفة مرعبة، مشوهة و قبيحة، و بالتالي يكرهها للمتلقي،و يظلّ يشحن صورة النار بالصور السلبيّة التي تقشعر منها الجلود، لا لشيء سوى ليُبرز قمة عذاب أهلها.

كما نلحظ جمالية تصويره لها بقوله:" واد يقال له وادي الحزن، في ذلك الوادي خمسمائة جبل، في كلّ جبل خمسمائة ألف ألف شجرة على كلّ شجرة سبعمائة ألف نوع من الثمر، و ذلك الشجر كله يقال له شجر الزقوم، لون ثمره حسن و طعمه خبيث، في كلّ ثمرة خمسمائة دودة، لو طرحت منها دودة إلى الدنيا فتنفست فيها أحرقت كّل من في الأرض"[36]،حيث توسع ابن سلام أكثر في وصف جهنم ، و أوديتها المتعددة كوادي حزن، و واد ويل، و واد سكران، واد سقر، و كلّ ما يُحيط بهم من جبال و مغارات و جباب و أشجار و نيران.

و بالتالي جعل من جهنم بؤرة حساسة جدا، ينبع من خلالها العذاب و العقاب الشديد ،الذي لا يتحمله و لا ينجوا أحد منه أبدا لما يدخلها، لأنّه قد فات الأوان،ولا مكان للتوبة.

3-1-4- الجنة:

إذا كانت جهنم جزاء الظالمين فإن الجنة جزاء المحسنين،فهي "دار السلام التي أعدها الله للمؤمنين والمؤمنات في الآخرة"[37]،أما سماتها ومميزاتها فوق ما يتخيله العقل البشري لأنّ" الله تعالى خلق الجنة تحت العرش عن يمينه، و عرضها كعرض السماوات و الأرض، من الذهب الأحمر و الفضة البيضاء، و الدرّ و الجوهر و اللؤلؤ و الزمرد

الأخضر، و جعل لها ثمانية أبواب من النور، و مسامير من الدرّ، و ستور الأبواب من السندس الأخضر، و مفاتيحها من الياقوت الأحمر، و سورها لبنة من فضة و لبنة من ذهب"[38].

حيث بين ابن سلام في هذا المقطع مدى جمالية الجنة و روعتها، فرسم ملامحها بصورة فنية رائعة عن طريق استحضار الذهب و الفضة و الجواهر، و الحجارة الكريمة كبنى تهيكل الجنة، و تؤسس دعائمها، وبالتالي قسم الجنة إلى أقسام سبعة ،وأعطى لكلّ قسم اسما يتماشى مع دلالتهابقوله :" و تسمى كل جنة باسم معلوم: الأول جنة النعيم، الثاني دار سلام، الثالث دار الخلد، الرابع الفردوس، الخامس دار الجلال، السادس جنة عدن، السابع الدار العليا"[39].

رأينا فيما سبق أنّ النار أقسامها سبعة، وكذلك الجنة بدورها لها سبعة أقسام: النعيم، دار السلام، الخلد، الفردوس، دار الجلال،عدن، الدار العليا،وكلّ قسم له أهله،ثم نجده يتوسع أكثر في وصف الجنة، و بيان علو درجتها عند الله،بقوله:" في كلّ جنة خلق الله تعالى ثمانمائة ألف مدينة في كلّ مدينة ألف ألف قصر من الذهب الأحمر والدر و الجوهر و الياقوت ألف باب من الفضة البيضاء، مساميرها من الذهب الأحمر، في كلّ قصر من قصور تلك المدائن ألف غرفة بعضها فوق بعض"[40].

مما سبق نلحظ أن الجنة تتميز بجمال مدنها، وروعة قصورها الذهبية المطرزة بالدرّ ،والجواهر والياقوت،وبتعدد غرفها المتارصة فوق بعضها البعض بطريقة منظمة ،وعجيبة،معدة للمؤمنين الذين عملوا الصالحات،وأطاعوا الله سبحانه وتعالى، و ابتعدوا عن المحرمات والأعمال السيئة.

و بالتالي فإنّ ابن سلام يجعل من الجنة البؤرة الايجابيّة المحفوفة بكلّ الخيرات و النفائس و المزودة بأرقى المدن و القصور و بأنواع مختلفة من الطيور و الثمار ، يوجد فيها أجمل النساء (الحور العين)، وهي دار السلام والأمن والنعيم.

4- خاتمة:

انطلاقا مما سبق نلحظ أنّ ابن سلام في كتابه" العظمة" استطاع أن يُعطي للمكان أهمية كبرى في بنية الخطاب السردي، وأظهر هندسته السرديّة عن طريق الوصف، طالقا العنان لمخيلته السردية،متجاوزا حدود المعقول،متخطيا الواقع بكلّ أبعاده،وبالتالي جاءت أمكنته غريبة غير مألوفة لدى القارئ، يتخللها عنصر الإثارة و الإدهاش،و العجائبية، بداية ب"مغارة المانعةّ التي جاءت تدل على العلم والخلود ، ثمّ يليه بيت الخليفة عثمان بن عفان رضي اللّه عنه ، الذي دلّ على الإيمان والتقى والورع، مرورا بأمكنة العوالم الغيبية ذات الصبغة العجائبية،المتكونة من الأراضي المعدنية والحجارة الكريمة بمختلف أنواعها، المؤلفة من الذهب و الفضة والياقوت و اللؤلؤ وغيرها...،أما مدنها فجاءت تدلّ على الرقي والحضارة والتطور، مرورا بالأمكنة الغيبيّة المرتبطة بيوم القيامة المنقسمة إلى قسمين :النار التي تدلّ على العذاب والعقاب والخسران المبين. والجنة التي تدلّ على النعيم والسلام حيث أبرز جماليتها،ومدى روعتها، و أضفى عليها لمسة فنية ساحرة، آسِراً القارئ بمدى جمالية التصوير ،مبرزا أن هناك يوما يجازى في العبد على أعماله .

الهوامش:

1- محمد صابر عبيد، سوسن البياتي، جماليات التشكيل الروائي:دراسة الملحمة الروائية"مدارات الشرق"لنبيل سليمان-عالم الكتب الحديث-اربد-الأردن،د.ط، 2012م، ص:197.

2- المرجع نفسه،ص:197

3- المرجع نفسه،ص:196.

4- نفلة حسن أحمد،"التحليل السيميائي الروائي:دراسة تطبيقية لرواية الزيبي بركات ، دار الكنب و الوثائق القومية، الإسكندرية،د.ط، 2012،ص:198/197.

5- عبد الرحمن محمد محمود الجيوري " بناء الرواية عند حسن مطلك:دراسة دلالية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، د.ط،2012، ص:63.

6- المرجع نفسه،ص:61.

7-**الشريف الجرجاني**: هو علي بن محمد (1339م/1413هـ) متكلم أشعري و فيلسوف ، عرف بالسيد الشريف علم في شيراز و ، و كتب بالفارسيّة و العربيّة، له شروح في أصول الفقه و الفلسفة و المنطق بالفارسية و علم الهيئة، التعريفات ، و شرح مواقف الإيجي ، و شرح السراجية للسجاوندي ، و له بالفارسية الدرّة ، و الغرّة، رسالتان مشهورتان في المنطق، نقلها إلى العربية ابنه محمد المعروف بابن الشريف (ت:1434 هـ) و شرح الغرة نجم الدين خضر الرازي (ت 1446 هـ) و الصفوى، ينظر: المنجد في اللغة و الأعلام، دار المشرق ، بيروت، ط:45، 2012م ، ص:195.

8-فايز الداية ،علم الدلالة العربي :النظرية والتطبيق ،دراسة تاريخية تأصيلية نقدية،دار الفكر ،بيروت ، لبنان،ط:2،1996،ص:8.

9- ينظر:منقور عبد الجليل، علم الدلالةأصوله ومباحثه في التراث العربي،منشورات إتحاد الكتاب ،دمشق،د:ط،2001،ص: 41/35/34 ، و محمود عكاشة الدلالة اللفظيّة ، مكتبة الأنجلو المصرية، د:ط، 2002، ص:15.

10- محمود عكاشة،المرجع نفسه،ص:08.

11-بوقرومة حكيمة" منطق السرد في سورة الكهف"، ديوان المطبوعات الجامعيّة-بن عكنون، الجزائر،د:ط، 2011، ص: 149.

12- ابن منظور " لسان العرب"دار صادر،بيروت،لبنان.ط:3 ،2004،ج13،ص:125.

13- كمال أبو ديب " الأدب العجائبي و العالم الغرائبي في كتاب العظمة و فن السرد العربي " دار وركس للنشر، لبنان، بريطانيا، ط:1، 2007،ص:73.

14 - المرجع نفسه،ص:73.

15- **جبل سرنديب**:هو الجبل الذي أهبط عليه آدم عليه السلام وهو بأعلى الصين في بحر الهند ذاهب في السماء،ينظر:محمد عجينة ،موسوعة آساطير العرب عن الجاهليّة ودلالتها ،دار الفرابي ، بيروت ، لبنان، ط:الأولى،2009،ص:240

16- كمال أبو ديب ،المرجع السابق،ص:74/73.

17- كمال أبو ديب، المرجع نفسه، ص:74.

18-**عثمان بن عفان** :هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ،فهو قرشيّ أمويّ يجتمع هو والنبي في عبد مناف ،وهو ثالث الخلفاء الراشدين ، ولد بالطائف بعد الفيل بست سنين على الصحيح (576) يكنى بأبي عبد الله ،ويلقب بذي النورين لأنّه تزوج برقية وأم كلثوم ابنتي الرسول صلى علي وسلم ،ينظر:محمد رضا،ذي النورين عثمان بن عفان الخليفة الثالث ،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،دط،دت،ص:12،11.

19- كمال أبو ديب ،مرجع سابق، ص:76.

20-المرجع نفسه، ص:76.

21- عبد الرحمن محمد محمود الجيوري " بناء الرواية عند حسن مطلك:دراسة دلالية، ص:76.

22-الشريف حبيلة ،الرواية والعنف:دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة،عالم الكتب الحديث اربد،الأردن،ط:1،2010،ص:27.

23- كمال أبو ديب، مرجع سابق، ص:84.

24- سناء الشعلان،السرد الغرائبي والعجائبي في الرواية والقصة في الأردن من عام 1970 إلى 2002،نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي،دط،دت،ص"22.

25-كمال أبو ديب ، مرجع سابق، ص:77/76.

26-الوصف : يعرف قدامة بن جعفر الوصف بقوله " الوصف إنما هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال و الهيئات و لما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني كان أحسنه من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها ثم يأظهرها فيه..حتى يحكيه بشعره و يمثله للحس بنعته، سيزا قاسم " بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ " ، دار التنوير للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، د.ط.د.ت، ص:107.

27- زهير محمود عبيدات، صورة المدينة في الشعر العربي الحديث، دار الكندي، الأردن، د.ط، 2006، ص:13.

28-سعيد سلام التناص التراثي :الرواية الجزائرية أنموذجا ،عالم الكتب الحديث،اربد،الأردن،دط،2010،ص:377.

ومحمد عجينة ،موسوعة آساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها ،دار الفرابي ، بيروت ،لبنان،ط:1،2009،ص:249.

29-كمال أبو ديب، مرجع سابق، ص83.

30- المرجع نفسه، ص:83.

31- المرجع نفسه، ص:79.

32-ظاهر محمد هزاع الزواهرة ،اللون ودلالته في الشعر،دار الحامد لنشر والتوزيع،عمان،الأردن،دط،2007،ص:13

33-كمال أبو ديب، مرجع سابق، ص:99.

34- كمال أبو ديب، م، ص:100/99.

35- محمد بن إبراهيم ،اليوم الآخر صفة الجنة والنار،دار أصداء المجتمع للنشر والتوزيع،المملكة العربية السعودية ط:1433،5هـ/2012م،ص:61.

36-كمال أبو ديب، مرجع سابق ، ص:103.

37- محمد بن إبراهيم ،اليوم الآخر صفة الجنة والنار،ص:39.

38-، كمال أبو ديب، مرجع سابق، ص: ص:148.

39-- المرجع نفسه، ص:148.

40- المرجع نفسه، ص:149.